

الْبَيْتُ الْحَرَامُ

المهنداس
عبدالرفاعي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ

.. سبيل الله تعالى ، لا يهتدي إليها إلا من يجاهد في سبيله ، بإرادة صادقة هدفها

معرفة الحق ..

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت :

[69

.. الجهاد ﴿ جَاهَدُوا فِي ﴾ بما يعنيه من العمل وبذل الطاقة ، هو مطلوب ، لكنّه لا يُهتدى به إلى سبيل الله تعالى ، إن لم تكن خلفه إرادة صادقة ، سمتها ابتغاء علم الحق الذي يريده الله تعالى : ﴿ تَمَّ ﴾ دون أهواءٍ مُسبقة : ﴿ جَاهَدُوا فِينَا ﴾ ... أمّا أن يتمّ اعتماد هوى مسبق الصنع ، ويُبدأ بالبحث له عن مُقدّمات عبر جهالة بالحدّ الأدنى من قواعد لسان كتاب الله تعالى ، فهذا يعني محاولة لجعل دلالات نصوص كتاب الله تعالى خلف أهواء الجهلة .. في حين أنّ التدبّر السليم هو السير خلف دلالات كتاب الله تعالى ، لبناء تصوّراتٍ من لبنات هذه الدلالات ، وبشكلٍ مجرّد عن أيّ هوى مُسبق الصنع ..

﴿ كَتَبْنَاكَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: 29]

.. ستقف في هذا البحث عند بيت الله تعالى ، وبدراسة قرآنية وفق منهج : ﴿ءَامِنًا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران : 7] ، تفصيلاً لخزعبلات المشككين بمكانه ، لنرى كيف يُسْقَطُ كتابُ الله تعالى تلك الخزعبلات من أساسها ، وبأنها مجرد ذرٌّ للرماد في أعين الناس ، انطلاقةً من نوايا ليست بريئة ..

.. بيت الله تعالى ، هو أوَّلُ بيتٍ وُضِعَ للناس ..

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١٢٥﴾ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ﴿١٢٦﴾ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران : 96 - 97]

.. في قوله تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ ، إشارة [إضافة لكون الله تعالى أضافه إليه ﴿بَيْتِي﴾] إلى أنه في المرتبة الأولى قدسيّة ، ووجوداً ..

.. وما نراه في كلمة ﴿وُضِعَ﴾ أنّها بصيغة المبني للمجهول ، وأنّه أوَّلُ بيتٍ تمّ وضعه للناس كلّ الناس ، بمعنى : هو القبلة الأولى التي يلتقي عندها كلّ الناس ، وفي هذا إشارة إلى أنه قبل آدم عليه السلام ..

وفي حرف الباء ﴿بِ﴾ في كلمة ﴿بِبَكَّةَ﴾ ، مع كون العبارة ﴿مُبَارَكًا وَهُدًى﴾ حالاً .. في ذلك .. بيان واضح أنّ قوله تعالى : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ يعني : أنّ بيت الله تعالى هو أوَّلُ بيتٍ تمّ وضعه للناس (كلّ الناس) وهو الذي بواسطة ﴿بِ﴾ بكة ﴿بِبَكَّةَ﴾ ، تمّ وضعه ، حال كونه مباركاً وهدى للعالمين ..

.. فالله تعالى لم يقل (للذي في بكة مباركاً وهدى للعالمين) إنما يقول : ﴿لَلَّذِي

﴿بِبَكَّةٍ مُّبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ .. فبواسطة (بكة) : ﴿بِبَكَّةٍ﴾ يتعلّق وضعه كمباركة وهدى للعالمين .. من هنا نرى أنّ (بكة) هي الأرض المقدّسة التي عليها يُبنى المسجد الحرام ، وليست المدينة (مكّة) ، حيث (مكّة) هي المساحة الواسعة المحيطة ب بكة ..
﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الفتح : 24]

.. فالأمر المحمول في هذه الآية الكريمة ، ساحته هي بطن مكّة ، وليس بكة ، وكما قلنا فإنّ مكّة هي المساحة الواسعة المحيطة ب بكة ..
.. إذاً .. الأرض المقدّسة المباركة ، التي وضعها الله تعالى كهدي للعالمين ، وكأول بيتٍ للناس كافّة ، هي (بكة) التي عليها يُبنى بناء البيت الحرام .. بينما (مكّة) هي مدينة واسعة نسبياً ، في داخلها تُوجد (بكة) .. ومن هنا .. علينا أن نتمييز بين دلالات هاتين الكلمتين ، فالمسجد الحرام هو حصراً في بكة ، حيث بيت الله تعالى ، بكونه على هذه الأرض المقدّسة ﴿بِبَكَّةٍ﴾ ، كان مباركاً وهدى للعالمين .. بمعنى : المباركة والهدى للعالمين ، للبيت ، يعودان للأرض المقدّسة (بكة) ، وليس للبناء كأحجار ، وليس لمكّة كمساحة واسعة تحيط بهذه البقعة المباركة (بكة) ..

.. وهذا له نظير في دلالات العبارتين [[﴿طُورِ سَيْنَاءَ﴾ ، ، ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾]]

.. فما نراه أنّ كلمتي [[﴿ سَيْنَاءَ ﴾ ، ، ﴿ سِينِينَ ﴾]] تردان كمضاف إليه لكلمة :

﴿ طُورِ ﴾ ..

﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٍ لِلْأَكْلِينَ ﴾ [المؤمنون :

﴿وَالْتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ ﴿٦٦﴾ وَطُورِ سَيْنِينَ ﴿٦٧﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٦٨﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا
الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٦٩﴾﴾ [التين : 1 - 4]

.. وكلمة ﴿طُور﴾ لم تأت في كتاب الله تعالى نكرة ، إنما جاءت في هذين
الموضعين معرفة تعريف إضافة : [﴿طُورِ سَيْنَاءَ﴾ ، ، ﴿طُورِ سَيْنِينَ﴾] ،
وجاءت في باقي مرّات ورودها معرفةً بأل التعريف ..

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ [البقرة : 63]

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ [البقرة : 93]

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ [النساء : 154]

﴿وَنَدَدَيْنَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم : 52]

﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ [طه : 80]

﴿ءَأَنْتَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ [القصص : 29]

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص : 46]

﴿وَالطُّورِ﴾ [الطور : 1]

.. تعريف ﴿الطُّور﴾ بأل التعريف ، وكمكان يُوجد فيه الطور ، ناتجٌ عن إضافته
لكلمة : ﴿سَيْنِينَ﴾ ، فالله تعالى يُقسم بالمكان الخاص الذي يوجد فيه الطور : ﴿طُورِ
سَيْنِينَ﴾ .. فكلمة ﴿سَيْنِينَ﴾ تصف المكان الخاص الذي فيه الطور ..

.. بينما العبارة القرآنية : ﴿طُورِ سَيْنَاءَ﴾ تصف المنطقة الأوسع التي فيها المكان :

(طور سينين) ، وهي المنطقة التي تخرج منها الشجرة المعنوية بقوله تعالى : ﴿وَشَجَرَةً

تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغِ اللَّكِينِ ﴿ .. فالمكان الموصوف بالعبارة
﴿ وَطُورِ سَيْنِينَ ﴾ ، محتوى في المنطقة الموصوفة بالعبارة : ﴿ طُورِ سَيْنَاءَ ﴾ ..

.. إذا .. القدسيّة بالنسبة لبيت الله تعالى ، تعود للأرض (بكّة) وليس للبناء ، وهذا
ما نراه أيضاً بالنسبة للمسجد الأقصى ..

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ

الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ [الإسراء : 1]

.. فالمسجد الأقصى اسمه المسجد الأقصى قبل دخول المسلمين إليه ، وبعد دخولهم ،
وهو الأرض المعروفة التي عليها يتم البناء ، ولا علاقة للبناء بذلك ..

.. فمن قمة الجبل تصوّر كلمة (بكّة) على أنّها تعني ذات المكان الذي تعنيه كلمة
(مكّة) .. فالأرض المقدّسة التي يُبنى عليه بيت الله تعالى ، هي (بكّة) :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي لِبَكَّةٍ مُّبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾

.. وتأتي الآية التالية مباشرة ، لتبيّن لنا مجموعة أمور تتعلق ببيت الله تعالى :

﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ

الْبَيْتِ مَنِ اسْتِطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾

.. العبارة ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾ ، تُبيّن لنا أنّ بيت الله تعالى فيه آيات بيّنات ،

وهذا يتعلّق بموقعه الخاص ، وليس بالبناء الذي فيه .. فبيت الله تعالى — كما بيّنا — يتعلّق
ببكّة كمكان مقدّس ، ولا يتعلّق بالأبنية التي تُبنى فيه على مدار الزمن ..

.. والعبارة : ﴿ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ ﴾ . بمعنى : فيه مقام إبراهيم .. ومن الممكن أن تكون

هذه الجملة خبراً لمبتدأ محذوف بتقدير : هي مقام إبراهيم .. فمقام إبراهيم عليه السلام

هو في البيت .. وهنا لن نتوسّع كثيراً في معنى العبارة : ﴿ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ ﴾ ، فلها

وجهان : وجه مادّي حسيّ كون إبراهيم هو - وابنه إسماعيل - عليهما السلام ، من رفع القواعد من البيت .. ووجه معنوي يتعلّق بالقيمة الروحيّة لإبراهيم عليه السلام ..

.. والعبارة ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ ، نراها جملة شرطية ، ومفهوم الأمن في

هذه العبارة ، له ما يُحاكيه في كتاب الله تعالى :

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمِنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة : 125]

﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفَ مِنَّا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِيبِي إِلَيْهِ شَرَّتْ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص :

[57

﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت : 67]

.. ما نراه أن الكلمات : ﴿آمِنًا﴾ ، ، ﴿وَأَمِنًا﴾ ، ، ﴿آمِنًا﴾ [والتي تتعلّق

ببيت الله تعالى ومن يدخله ، هي من الفعل الثلاثي : (آمِنَ) ، الذي مضارعه (يَأْمَنُ) ، واسم الفاعل منه : (آمِن) .. ودلالات هذا الثلاثي (آمِنَ) تعني حصول الطمأنينة في قلب الآمن ، فموقع الآمن المعني هنا هو في قلب الآمن ..

﴿فَإِذَا آمِنْتُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم﴾ [البقرة : 239]

﴿فَإِن آمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ﴾ [البقرة : 283]

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ ﴿٧﴾ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ

أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿ [الأعراف : 97 - 98]

﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يُأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ ﴾ [الأعراف : 99]

﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ ... ﴾ [النحل : 45]

﴿ ءَأَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ ﴿٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ مَّن

فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۗ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿ [الملك : 16 - 17]

.. أمّا دلالات الفعل الرباعي المتعدّي بالتضعيف (أَمِنَ) ، هي ما يتعلّق بها التأمين ،

نقول : (أَمِنَ ، يُؤَمِّنُ ، تَأْمِينًا) ، واسم الفاعل (مُؤَمِّنٌ) ، واسم المفعول (مُؤَمَّنٌ) ..

وللأسف .. الكثيرون يقرؤون دلالات العبارة القرآنية ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ﴾ ،

على أنّها بالشكل (ومن دخله كان مؤمناً) ، فيقولون : كيف قُتِلَ في بيت الله تعالى

الحرام ناسٌ أثناء وجودهم فيه ؟ .. يقولون ذلك مُسْقِطِينَ التأمين الذي هو من الرباعي

المتعدّي بالتضعيف (أَمِنَ) على كلمة : ﴿ ءَامِنًا ﴾ : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ﴾ ..

.. كلمة : ﴿ ءَامِنًا ﴾ : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ﴾ هي اسم فاعل من الثلاثي

(أَمِنَ) ، وما يتخيّله الكثيرون عن دلالتها ، هو أنّها اسم مفعول من الرباعي المتعدّي

بالتضعيف (أَمِنَ) .. والفارق كبير جداً بين دلالات هاتين الكلمتين ..

.. إذاً .. قوله تعالى : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ﴾ يعني : ومن دخله كان مطمئناً

تملاً السكينة قلبه .. وهذا له تعلقه بالآيات البينات التي يتّصف بها بيت الله تعالى : ﴿ فِيهِ

ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۗ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ﴾ ، وهذا المعنى نراه في قوله تعالى :

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿ [الفتح : 27]

.. فلو كانت كلمة ﴿آمِنِينَ﴾ بمعنى : مُؤْمِنِينَ من الإيذاء ، لما تمَّ ذكر العبارة : ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ في ذات السياق : ﴿آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ .. فكلمة ﴿آمِنِينَ﴾ من الثلاثي (أَمِنَ) ، تعني مُلئت قلوبهم بالسكينة والطمأنينة - كما بيَّنا - وليست بمعنى (مُؤْمِنِينَ) .. وبعد ذلك في ذات السياق تأتي العبارة : ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ لتحمل معنى تأمينهم من أن يتمَّ إيذاؤهم من قبل الآخرين ، كون الأمر أصبح بعيداً عن إيذاء الآخرين لهم ..

.. ولا شكَّ أنَّ الله تعالى يأمرنا بأن نُؤمِّنَ على داخلي بيته الحرام ، فقولته تعالى : ﴿أُولَئِكَ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُحِبُّونَ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ...﴾ [القصص : 57]
﴿أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت : 67]

فالحرَمُ الآمِنُ ، يعني حرماً فيه هو حيثيات الأمن ، وكلمة : ﴿نُمَكِّنْ﴾ : ﴿نُمَكِّنْ﴾ : ﴿نُمَكِّنْ﴾ لهم حَرَمًا آمِنًا ، نراها بصيغة المضارع ، وتعني إعطاء حيثيات القوة والثبات .. وكلمة : ﴿جَعَلْنَا﴾ : ﴿أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾ ، هي بمعنى : وصفنا وسمَّينا ، كون الأمر يتعلَّق بما هو رُوحي وليس مادياً ..

.. إذاً .. العبارة : ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ ، لا شكَّ أنَّها تحمل - فيما تحمل من دلالات - بياناً للمؤمنين ، بضرورة عمل ما يستطيعونه للحفاظ على الأمن داخل

﴿الْبَيْتُ الْحَرَامُ﴾ المهندس عدنان الرفاعي 9

بيت الله تعالى ، كأمرٍ شرعيٍّ ، وهذا لا خلاف فيه .. لكن .. هذه الصيغة ﴿ءَامِنًا﴾ ، ليست بمعنى التأمين ، كما بيّنا .. لذلك .. نرى أنّه يموت داخل بيت الله تعالى (أحياناً) بعض الداخلين فيه ، نتيجة حوادث تقع فيه ، أو قتل ..

.. وما نراه في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ﴾ أن حرف الواو في بدايتها هو استئناف لكلام جديد يتعلّق بالبيت .. لذلك .. ما يجزم به بعضهم بأنّ الدخول المعني هنا هو - حصراً - لمقام إبراهيم كقيمة معنويّة .. هذا الجزم ليس صحيحاً .. فالاستئناف يؤكّد تعلّق الأمر بالبيت ..
.. ولننظر في قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ءَامِنًا وَأَنحَدُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُضِلًّا وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [البقرة : 125]

.. عندما ترد كلمة ﴿الْبَيْتُ﴾ بهذه الصيغة المعرفة بأل التعريف ، فهذا يعني بيت الله تعالى ، البيت الحرام ... وكلمة ﴿مَثَابَةً﴾ من الجذر : (ث ، و ، ب) ، نقول : ثاب يثوب مثابة وثوباً .. ومن مشتقات هذا الجذر : الثواب ، الذي هو إعادة مستحقّات الجزاء : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ [مريم : 76]
ومن مشتقات الجذر (ث ، و ، ب) : الثياب ، والتي تُعيد الستر للجسم ليكون بصورة أكمل :

﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِبِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرْبَابِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف : 31]

﴿..... وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ﴾ [النور: 58]

.. فالعبارة ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ تعني عودة للناس إلى الفطرة النقيّة ، خروجاً من متعلّقات الدنيا وما يتعلّق بها ، سترّاً لخطاياهم .. فبيت الله تعالى قبلتهم التي من خلالها يصعد نور صلاتهم إلى السماء ..

.. وكلمة: ﴿وَأَمِنَّا﴾ هي صيغة مصدر للثلاث : (أمن) .. وكنا قد وقفنا عند هذا الأمر عندما فسّرنا قوله تعالى : ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ .. فمن المعلوم أنّ صيغة المصدر شاملة لكلّ معاني الجذر اللغوي .. فبيت الله تعالى هو أمنٌ لكلّ الناس ..

.. والعبارة القرآنيّة: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ ، نراها تُبتدأ بالأمر الإلهي: ﴿وَأَتَّخِذُوا﴾ ... و: ﴿مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾ له بُعدان :

1 - بُعد مادّي يتعلّق بكون إبراهيم عليه السلام هو - وابنه إسماعيل - عليهما السلام ، من كلّفه الله تعالى برفع القواعد من البيت ، وبتطهير بيت الله تعالى للقائمين والطائفين والعاكفين والركّع السجود ..

﴿وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ

السُّجُودِ﴾ [البقرة: 125]

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: 127]

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ

لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: 26]

2 - بُعد روحي يتعلّق بإبراهيم عليه السلام كونه رأى ماهيّة المناسك ..

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن دُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿ [البقرة : 127 - 128]

.. ويتعلّق بالأمر الإلهي للنبيّ محمد عليه السلام ، ولنا إلى قيام الساعة ، باتّباع ملّة إبراهيم عليه السلام ..

﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران :

[95

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

[النحل : 123]

.. فالعبارة : ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ ليست محصورة بمجرّد وجود بقعة من هذا المكان

المقدّس - مع عدم إنكارنا لذلك - يُطلق عليها اسم : مقام إبراهيم ... هذه العبارة :

﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ لها أبعادٌ دلاليّةٌ روحية عميقة ، فهي تعني - فيما تعني - منزلة الفطرة

النقيّة الخالصة عن أيّ شرك .. منزلة الخلاص والإخلاص لله تعالى حتّى دون التفاعل مع الرسالات السماويّة .. منزلة الفطرة النقيّة التي فطر الله تعالى الناس عليها .. منزلة جعل

إبراهيم عليه السلام إماماً للناس (كلّ الناس) ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة :

124] .. منزلة المشترك الإنساني النقي ، حيث بيت الله تعالى - الذي رفع إبراهيم عليه

السلام القواعد منه - يلتقي عنده كلّ الناس ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتِطَاعَ

إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ .. منزلة الأب الروحي لمن بعده من أنبياء ورسول عليهم اتّباع ملّته عليه

السلام .. منزلة الأب الروحي لكلّ الملتزمين بأحكام الله تعالى وشعائره (المسلمين) :

﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ [الحج : 78] .. منزلة تلقي

حيثيات فعل مناسك شعائر العبادات ، كما رأينا في بحث : (أقم الصلاة) ... فالمتزلة :

﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ كمتزلة مجردة عن الجانب الشخصي والتاريخي ، بما تلقى إبراهيم عليه

السلام حيثيات فعل شعائر العبادات ، بوحى من الله تعالى ..

.. فهذه المتزلة كفطرة نقيّة طاهرة ، تمثلها إبراهيم عليه السلام مائة بالمائة ، متلقياً بها

وحى فعل شعائر العبادات ... من خلالها ... تتم حالة الانصهار الروحي للذات ، صلة

مع الله تعالى : ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ﴾ ..

.. من هنا نرى أن الاتّباع للملّة ، لم يأت - في كتاب الله تعالى - إلا متعلقاً بملّة

إبراهيم عليه السلام ..

﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: 130]

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [البقرة : 135]

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران : 95]

﴿..... أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء : 125]

﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنعام : 161]

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف : 38]

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل : 123]

﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الحج : 78]

. ومن هنا نرى .. أن متزلة الخلة .. بين الله تعالى وبين مخلوق من مخلوقاته ، لم ينلها

إلا إبراهيم عليه السلام : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ

مَلَّةٌ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿ [النساء : 125] .. ومن هنا نرى معنى قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنِ مَلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ [البقرة : 130] ..

.. إذا .. العبارة : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ ، لها بُعد روحي يتعلّق بالسمو الروحي الذي تمثله إبراهيم عليه السلام ، كفطرة نقيّة طاهرة ، بها توجه إلى فاطر السماوات والأرض سبحانه وتعالى ..

.. وما رأيناه في الآية الكريمة ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة : 125] ، نرى جانباً آخر منه في الآية الكريمة :

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة : 97]

.. كلمة ﴿ جَعَلَ ﴾ بمعنى صيّر ووصف وسمّى ، كون الأمر يتعلّق بأمرٍ روحي ، وليس بمجرد خلقٍ مادي .. والعبارة ﴿ الْكَعْبَةُ الْبَيْتَ الْحَرَامَ ﴾ ، نرى فيها : ﴿ الْبَيْتَ الْحَرَامَ ﴾ بدلاً من : ﴿ الْكَعْبَةَ ﴾ .. وكلمة ﴿ الْكَعْبَةَ ﴾ هي صيغة مصدر مؤنثة معرفة بآل التعريف ، من الجذر (ك ، ع ، ب) ، ومشتقات هذا الجذر تعني : الظاهر العالي المميّز عمّا يُحيط به ، من المسألة المحمولة بالسياق .. فالكعبان معلومان :

﴿ فَأَغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ [المائدة : 6]

.. والمتقون (ذكوراً كانوا أم إناثاً) ، لهم في حنّة الآخرة أماكن عالية بارزة مميّزة : ﴿ وَكَوَاعِبُ ﴾ ، تطلُّ على نعيم الجنّة من حدائق وأنهار ..

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣٦﴾ حُدَّائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٧﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٨﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٩﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا ﴿٤٠﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴾ [النبأ : 31 -

[36

.. وحصر كلمة كواعب ﴿ وَكَوَاعِبَ ﴾ كجمع لاسم الفاعل (كاعب) - كما يذهب تفسيرا الموروث - بنواهد النساء ، ليس صحيحاً على الإطلاق ، فالمتقون : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ الذين لهم في الجنة : ﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾ ، هم من الذكور والإناث ، وليسوا ذكورا فقط .. إضافة إلى أن الصياغة لهذه الآية الكريمة في سياقها المحيط بها ، لا تُسعفهم فيما ذهبوا إليه ..

.. السياق القرآني لكلمة : ﴿ الْكَعْبَةَ ﴾ : ﴿ * جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْتَيْدَ ﴾ نرى فيه أن الله تعالى جعل أربعة أمور قياماً للناس ، هي : 1 - ﴿ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ ﴾ ، ، 2 - ﴿ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ ﴾ ، ، 3 - ﴿ وَالْهَدْيَ ﴾ ، ، 4 - ﴿ وَالْقَلْتَيْدَ ﴾ ..

.. الذي جعله الله تعالى قياماً للناس ، ليس المُبدَل منه : ﴿ الْكَعْبَةَ ﴾ ، إنما البدل : ﴿ الْبَيْتَ الْحَرَامَ ﴾ .. وهذا - كصياغة لغوية من مُبدَل منه وبدل - له نظير في كتاب الله تعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ [البقرة : 217]

.. السؤال ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ ليس عن الشهر الحرام ، فالله تعالى لم يقل : ((يسألونك

عن الشهر الحرام قل)) .. الله تعالى يقول : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ

قِتَالٍ فِيهِ قُلْ﴾ .. السؤال هو عن القتال في الشهر الحرام .. لذلك نرى أن

الإجابة بعد كلمة : ﴿قُلْ﴾ ، كلَّها تتمحور حول القتال في الشهر الحرام ..

.. فكما أن كلمة ﴿قِتَالٍ﴾ هي بدل اشتمال من الشهر ﴿الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ ،

كذلك : ﴿الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ هو بدل من : ﴿الْكَعْبَةِ﴾ .. فالذي جعله الله تعالى للناس

قياماً هو ﴿الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ وليس ﴿الْكَعْبَةِ﴾ ..

.. فالكعبة هي العلو الروحي كقيمة روحية عالية لبيت الله تعالى ، وتقع في مركزه ،

ومنها يصعد النور الروحي إلى السماء ... القيام والعكوف والركوع والسجود ، هو في

البيت الحرام ، باتجاه الكعبة ، فالكعبة هي النقطة التي يتم الاتجاه إليها ، سواء داخل

البيت الحرام ، أم خارجه ..

.. وكما بيّنا ، فإن بيت الله تعالى الحرام كبقعة مقدّسة مركزها الكعبة ، موجودٌ في

أرض اسمها في كتاب الله تعالى : ﴿بَكَّةُ﴾ : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ

مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران : 96] .. بينما مكّة هي مساحة واسعة ولا تحمل

قدسيّة كما هو حال ﴿بَكَّةُ﴾ ..

.. وبيت الله تعالى الموجود في ﴿بَكَّةُ﴾ ، لم يكن عنده تجمع بشري ، حينما ذهب

إليه إبراهيم عليه السلام ، قبل رفعه - مع ابنه إسماعيل - عليهما السلام ، للقواعد من

هذا البيت .. وهذا الأمر بيّن في كتاب الله تعالى ، ولا خلاف فيه ..

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة : 126 - 127]

.. العبارة : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا ﴾ تبين لنا تجمعا بشريا صغيرا ، لا يرتقي إلى حجم البلد ، وما طلبه إبراهيم عليه السلام من الله تعالى هو أن يجعل هذا التجمع : ﴿ بَلَدًا ﴾ : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ﴾ .. إذا .. لم يكن هناك - عند بيت الله تعالى - بلد ، قبل إبراهيم عليه السلام .. وبعد إبراهيم عليه السلام أصبح هناك بلد .. لذلك .. في دعاء آخر لإبراهيم عليه السلام ، وبعد أن أصبح هناك بلد ، وبعد أن أسكن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام عنده .. بعد ذلك .. نرى دعاء آخر لإبراهيم عليه السلام بأن يجعل هذا البلد آمنا ..

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿١٢٦﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَلَنِي كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [إبراهيم : 35 - 37]

.. فإسكان إسماعيل عليه السلام عند بيت الله تعالى ، كان قبل هذا الدعاء ، أي قبل أن يكون هذا التجمع بلداً .. لذلك نرى صيغة الماضي : ﴿ أَسْكَنْتُ ﴾ ، فلم يقل عليه

السلام : (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكِنُ) من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم) ، إنما يقول :

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكِنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ ..

.. إذا .. لم يكن هناك تجمع بشري وحضارة قوية تكون مركز استقطاب تجاري ،

عند بيت الله تعالى ، ولم تكن هناك مدينة زراعية وحدائق ، فالعبارة : ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي

زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ واضحة جلية في ذلك ، فكيف يصف الله تعالى أرضاً بقوله :

﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ وتكون خصبة ذات أشجار وحدائق وثمار !!!؟ .. وما يؤكّد

ذلك ، دعاء إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ ، فالأرض التي أسكن من

ذريته فيها ، لا تُنتج هي الثمرات كونها بوادٍ غير ذي زرع ، فهذا الدعاء تكرر قبل جعل

البلد ، وبعد جعله :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾

[البقرة : 126]

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾

[إبراهيم : 35 - 37]

.. وهذه الثمرات ، ليست نتاجاً زراعياً من خلال زراعة تنبت في الأرض التي

هي وادٍ غير ذي زرع ، إنما تُجى إلى هذه المنطقة من أماكن أخرى :

﴿ أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رَزَقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ

أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص : 57]

.. وما نراه على أرض الواقع - حتى الآن - أن هذه الحالة متحققة تماماً في المنطقة

الحيطة ببيت الله تعالى ، فالكل يعلم واقع هذه المنطقة .. ولا يمكن لمن عنده علم في

الجغرافيا أن يزعم أنها متحققة في بلاد الشام مثلاً ، حيث المسجد الأقصى .. هذه الحالة

متحققة تماماً عند بيت الله تعالى المعلوم ، الذي لا خلاف في مكان وجوده .. وكل ما يتمُّ ذرّه من رماد في أعين الناس لتشكيكهم بمكان بيت الله تعالى ، لا قيمة له ..
.. ومفهوم أم القرى ، لا علاقة له بالتجارة ، ولا بكل ما يتعلّق بأمر الحياة الدنيا ..
.. ومفهوم مجرد .. أم القرى ليست صفةً خاصّة - حصراً - بالموقع الذي فيه بيت الله تعالى .. لإدراك هذا الأمر .. لا بدّ من الوقوف عند دلالة كلمة القرية ، والفارق بينها وبين دلالات كلمة المدينة ..

.. بالعودة إلى مشتقات الجذر (م ، د ، ن) في القرآن الكريم ، وكذلك مشتقات الجذر (ق ، ر ، ي) ، نرى ما يلي :

1 - وردت كلمة ﴿الْمَدِينَةِ﴾ في القرآن الكريم (14) مرّة ، جاءت فيها جميعاً معرفةً بأل التعريف ، ووردت كلمة القرية (33) مرّة ، جاءت فيها معرفةً بأل التعريف ﴿الْقَرْيَةَ﴾ وغير معرفة ﴿قَرْيَةٍ﴾ ..

2 - لم تأت كلمة ﴿الْمَدِينَةِ﴾ مضافة ولا مرّة في كتاب الله تعالى .. بينما وردت القرية مضافة : ﴿قَرْيَتِكَ﴾ ، ﴿قَرْيَتِكُمْ﴾ ، ﴿قَرْيَتِنَا﴾ ..

3 - حُوطبت القرية في القرآن الكريم كذات تُؤمن وتُسأل وتملك القوّة وتملك وتفلسد وتعتو عن أمر ربّها .. وبالتالي حُوطبت خطاب العقلاء .. ولم تُخطب المدينة بذلك الخطاب ..

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً ءَامَنْتَ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ﴾ [يونس : 98]

﴿ وَسَقَلَ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ [يوسف : 82]

﴿ مَا ءَامَنْتَ قَبْلَهُمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء : 6]

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ [الحج : 48]

﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ [النمل : 34]

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ ﴾ [حمد : 13]

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ ﴾ [الطلاق : 8]

4 - كلمة ﴿ أَهْلٌ ﴾ تأتي مضافة للقرية ، وتأتي مضافة للمدينة ..

﴿ وَجَاء أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الحجر : 67]

﴿ قَالُوا إِنَّا مَهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾ [العنكبوت : 31]

.. مما سبق .. نرى أن المدينة ترد صفةً للجانب المادّي الحضاري للتجمّعات البشرية ، فهذه الصفة ظاهرة ومُشاهدة وبالتالي معروفة ، لذلك رأينا أن كلمة ﴿ الْمَدِينَةِ ﴾ تأتي دائماً معرّفة بأل التعريف ، ولم تأت نكرة ولا مرّة .. أمّا كلمة ﴿ الْقَرْيَةِ ﴾ فترد صفةً لجميع النشاطات الفكرية والعقائدية والاجتماعية للمجتمعات البشرية ، تلك النشاطات التي منها الظاهر ، ومنها المخفي ، ولذلك ، رأينا أنّها تأتي مُعرّفة ﴿ الْقَرْيَةِ ﴾ ، وتأتي غير معرّفة ﴿ قَرْيَةٍ ﴾ ، ورأيناها تُضاف ، وتُخاطب كذات عاقلة تُؤمن وتظلم و.....

.. في سورة الكهف ، وفي قصّة موسى عليه السلام مع العبد الصالح ، وفي مسألة أهل القرية التي بنى العبد الصالح فيها جداراً ، نرى في بداية النصّ القرآني المصوّر لهذه القصّة ، كلمة ﴿ قَرْيَةٍ ﴾ :

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا

جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقِضَ فَاقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ [الكهف : 77]

وفي سياق النصّ المصوّر لهذه القصّة نرى ورود كلمة ﴿ الْمَدِينَةِ ﴾ :

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف : 82]

.. ورود كلمتي القرية والمدينة في قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح ، يأتي بشكلٍ مُطلقٍ يوافق موافقةً مطلقةً الموقف المناسب في كلِّ حالة .. فطلب الطعام يتعلّق بالجانب البشري من كرمٍ وغيره ، وهذا تُناسبه كلمة ﴿قَرْيَةٍ﴾ ، بينما بناء الجدار يتعلّق بالجانب المادّي الحضاري ، وهذا تناسبه كلمة ﴿الْمَدِينَةِ﴾ ..

ومن جهةٍ أخرى فإنّ هذين الغلامين صاحبي الجدار ، ينتميان إلى هذا التجمّع البشري انتماءً مادياً فقط ، بمعنى يأكلون ويشربون ويعيشون في هذا التجمّع البشري ، فهما ينتميان إلى هذا التجمّع انتماءً يتعلّق بصفة المدينة التي تصفه ، ولذلك نرى الوصف : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ .. وهذان الغلامان لا ينتميان إلى هذا التجمّع انتماءً معتقد وفكر وأخلاق وقيم .. لذلك لم يتعلّقا بهذا التجمّع تعلقاً من زاوية وصفه بصفة القرية ..

.. ما أودّ قوله .. أنّ القرية تصف الجانب المعنوي الاجتماعي العقدي للتجمّعات البشرية ، وكلمة المدينة تصف الجانب المادّي الحضاري لذات التجمّعات البشرية .. والعبرة القرآنيّة : ﴿ أُمَّ الْقُرَى ﴾ ، تصف المركز والأساس للمعتقدات البشرية ، في عصرٍ ما ، فالقرى كلّ القرى ، لا يهلكها الله تعالى حتّى يكون أهلها ظالمين مكذّبين فيما يبعثه الله تعالى في مركز معتقداتها من رسولٍ يُبلّغ رسالته لأهلها ..

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ [القصص : 59]

.. فأَمَّ القرى تختلف من عصر لعصر ، كونها صفةً لمركز المعتقدات البشرية .. ففي عصر موسى عليه السلام ، كانت أمَّ القرى هي مصر ، وفي عصر عيسى عليه السلام كانت أمَّ القرى هي القدس ، وفي عصر محمد عليه السلام كانت أمَّ القرى هي مكة ..

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ

الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ [الشورى : 7]

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ

حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِمْ ﴾ [الأنعام : 92]

.. ما أودَّ قوله ، أن العبارة : ﴿ أُمَّ الْقُرَىٰ ﴾ ، لا تعني مركزاً مادياً تجارياً وزراعياً وعمرانياً وحضارياً (كحضارة مادية) ، كما هي العواصم التجارية للدول الآن في عصرنا .. أبداً .. هي تعني مركز المعتقدات البشرية كمعتقدات .. ومكة - حين بعث الرسول محمد عليه السلام - كانت هي المركز للمعتقدات البشرية لمن حولها من القرى ، فالحج - وزيارة بيت الله تعالى تبركاً - كان موجوداً قبل بعث النبي عليه السلام .. وكون الآثار (وكتب التاريخ) لا تُظهر لنا مكة التي نعلمها ، كمركز تجاري وكعاصمة حضارية كبيرة ، لا يعني - ذلك - أنها ليست هي المعنية في كتاب الله تعالى والتي تحتوي - كما بيّنا - على بكة حيث بيت الله تعالى الحرام .. أبداً .. العكس هو الصحيح .. فالمنطقة المحيطة ببيت الله تعالى غير خصبة ، ولم تكن بلداً قبل إبراهيم عليه السلام ، وقد بيّنا ذلك ... كلُّ ذرٍّ للرماد في أعين الناس ، لتشكيكهم بمكان بيت الله تعالى ، انطلاقاً من عدم كون مكة مركزاً تجارياً حضارياً كبيراً ، لا قيمة علمية له .. وما يجب أن نعلمه ، أن كتاب الله تعالى ، عندما يُورد اسم علم ، مثل (بكة) ، مكة) ، أو كلمة معرفةً بأل التعريف ، فهذا يعني أن الأمور المحمولة بهذه الكلمات معلومة ، ولا خلاف عليها ، وإلا لما وردت في كتاب الله تعالى معرفة ..

.. البيت الحرام ، المسجد الأقصى ، مكة ، شهر رمضان ، يوم الجمعة كل ذلك أمورٌ معلومة من قبل إنزال كتاب الله تعالى ، ولا خلاف فيها أبداً ، وهي من الذكر الذي تكفل الله تعالى بحفظه .. الله تعالى لم ينزل - في كتابه الكريم - ألغازاً غير معلومة في كلمات معرفة بأل التعريف وأسماء علم .. الله تعالى لا ينزل أحكاماً لشعائر عبادات تتعلق بأزمة وأمكنة غير معلومة ... علم مكان بيت الله تعالى ، من الأمور المعلومة ، التي لا يختلف فيها اثنان ، وإلا لأورد الله تعالى لنا في كتابه الله تعالى ، ما يُبين لنا السبيل في معرفة ذلك .. فورد بيت الله تعالى بصيغة المعرفة بأل التعريف ، وبصيغة الإضافة حيث يُضيفه الله تعالى له ، لأكبر دليل على أن الأمر معلوم ولا خلاف فيه ، شأنه بذلك شأن الكلمات المعرفة بأل التعريف : (الأرض ، السماء ، البحر ، الجبال ،) ..

.. سنقف الآن عند بعض شبهات بعض الضالين في تشكيكهم بأماكن شعائر العبادات ، لنرى كيف أن سبب تيههم هو الجهل بقواعد لسان كتاب الله تعالى ، مع الجهل بالحقائق العلمية ، مع الإرادة غير النقية لمعرفة الحق ، هذا إن أحسننا الظن فيهم .. وسنبداً بتشكيك بعضهم في مكان المسجد الأقصى ، انطلاقاً من أن دلالات كلمة : ﴿الْأَقْصَا﴾ ، بمعنى : الأبعد .. فيزعمون أن مكانه بعيداً عن المدن كتجمعات بشرية ..

﴿سُبْحٰنَ الَّذِي أَسْرٰى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ

الْأَقْصَا الَّذِي بَنٰرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِن مِّنَ آٰيٰتِنَا﴾ [الإسراء : 1]

.. هذا القياس هو نتيجة جهل بكون الكلمة القرآنية فطرية موحاة من الله تعالى ، وليست وضعية كباقي كلمات اللغة العربية الاصطلاحية كمصطلحات وضعها البشر .. دلالات الكلمة القرآنية تُقاس على علم الله تعالى ، وعلى صفات المسمى المعنوية منها والحسية ، وليس على تصورات البشر وأفهامهم المتناقضة .. فكلمة ﴿الْأَقْصَا﴾ تستمد دلالاتها من جذرها اللغوي الذي تفرعت عنه ، والبعد المعني هنا ، لا يتعلق في مكان

المسجد الأقصى نسبة لبعض البشر وحضاراتهم ، ولا يتعلّق بحادثة الإسراء .. أبداً .. اسمه ﴿الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ كاسم سمّاه الله تعالى به قبل خلق البشر .. البعد المحمول بكلمة : ﴿الْأَقْصَا﴾ : ﴿الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ يتعلّق بكينونته ، وليس بنسبة إلى بشر أو إلى عمران بينه البشر على الأرض ..

.. وما نراه في كتاب الله تعالى ، أن الإسراء كان إلى المسجد الأقصى كمقدّمة للمعراج ، فالإسراء إلى المسجد الأقصى هو ليرى النبي عليه السلام من آيات الله تعالى :

﴿سُبْحٰنَ الَّذِي أَسْرٰى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء : 1]

فروية آيات الله تعالى اقتضت الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى .. وأيضاً تمّ رفع عيسى عليه السلام إلى السماء (بعدما توفاه الله تعالى) من ذات المكان .. وفي هذا دليل على أن ﴿الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ هو سبيل الصعود الروحي إلى السماء ... من هنا ... ندرك معنى كلمة : ﴿الْأَقْصَا﴾ ، كفرع مشتقّ من جذرها اللغوي ..

.. والمسجد الأقصى معلومٌ ولا خلاف فيه ، وحوله أقام بنو إسرائيل كيانهم الأوّل ، وحوله يقيمون كيانهم الآن كما نشاهد بأمّ أعيننا ، وهو ذاته سيدخله الفاتحون كما دخله أسلافهم زمن الإفساد الأوّل لبني إسرائيل ، فالفاتحون الذين وضعوا حداً لإفساد بني إسرائيل الأوّل ودخلوه فاتحين ، لم يدخلوا مكاناً معزولاً بعيداً عن البشر وحضاراتهم ..

﴿سُبْحٰنَ الَّذِي أَسْرٰى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكَيْلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَن حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ

لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿١٠٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَلِ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿١٠٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ أَحْسَنُكُمْ أَحْسَنُتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيُسْتَفْؤُا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿١٠٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ ۖ وَإِنْ عُدتُمْ عُدْنَاُ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿١٠٨﴾ [الإسراء :

[8 - 1

.. فإفسادا بني إسرائيل في المرّتين ، هو في فلسطين حول المسجد الأقصى ، وليس في سيناء ، وليس في مكّة أو الجزيرة العربيّة .. والفاتحون في المرّة الأولى دخلوا المسجد الأقصى حيث يوجد بنو إسرائيل ، وفي المرّة الثانية سيدخلونه حيث يوجد بنو إسرائيل الذي جيء بهم لفيفاً كما نرى بأّم أعيننا .. وهذا أمرٌ معلومٌ ولا خلاف فيه ، والواقع الذي نراه بأّم أعيننا يُؤكّد ذلك ، ولا تعمى هذه الحقيقة إلّا على فاقديّ للبصيرة ..

.. هل جيء ببني إسرائيل - في عصرنا - لفيفاً إلّا إلى فلسطين ؟ ، وهل يهدفون إلّا للاستيلاء على القدس حيث المسجد الأقصى ؟ ، أليس وعد الآخرة الذي يجبتون به لفيفاً والذي نراه بأّم أعيننا : ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اأَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ [الإسراء : 104] هو ذاته وعد الآخرة الذي سيهزمون به كما بيّن لنا كتاب الله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيُسْتَفْؤُا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾ ؟ .. هل يوجد عاقل على وجه الأرض يستطيع إنكار هذه الحقائق ؟ ..

.. وما يجب علمه أن المعنيَّ بهذه الأسماء القرآنيَّة : (البيت الحرام ، الكعبة ، المسجد الأقصى) ليس الأبنية التي يبنها البشر في تلك الأماكن .. أبداً .. وكنتا قد تعرّضنا بشكل سريع إلى هذا الأمر .. المعني هو الأرض في تلك الأماكن ، مهما كان البناء فيها ..

.. المسجد الأقصى ، دخله المسلمون بعد وفاة النبي عليه السلام ، واسمه المسجد الأقصى قبل وفاته عليه السلام ، وقبل خلق البشر .. فالله تعالى ذكره في كتابه الكريم بهذا الاسم في مسألة الإسراء إليه ، وعندما اغتصبه اليهود عام (1967) لم يتغيّر اسمه ، ومهما فعلوا من هدمٍ للبناء فيه لن يتغيّر اسمه ، فالفاتحون سيدخلون المسجد الأقصى فاتحين ومهما كانت مرجعية البناء المبني فيه ، فقله تعالى في وصف دخول الفاتحين إليه : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأَ مَا عَلَوُا تَتَبِّرًا ﴾ [الإسراء : 7] ، يدلُّ على أن اسمه هذا مجرد عن كونه مع أيِّ رسالة ، ومجرد عن حيثيات البناء فيه ..

.. ويستشهد بعضهم بالمعارك والأحداث التاريخيّة التي حصلت ، والتي يسقطونها على مكّة معتقدين أنّها هي بكّة ، وذلك في قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الفتح : 24]

فكما بيّنا ، مدلول كلمة ﴿ مَكَّةَ ﴾ يختلف عن مدلول كلمة ﴿ بَكَّةَ ﴾ ، فبكّة هي مكان البيت الحرام ، حصراً .. بينما مكّة هي المساحة الأوسع كمدينة وما يحيط بها :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ﴾ [آل عمران : 96 – 97]

.. وهنا يتجلى جهل الجاهلين ، بإسقاط الأحداث التاريخية التي وقعت ببطن مكة (التي قد تمتد لعشرات الكيلومترات) على بيت الله تعالى الموجود في بكة ، كمساحة محدّدة هي بيت الله تعالى ، كما رأينا ... يعتبرون بكة هي ذاتها مكة ، ويعايرون الأحداث التاريخية على هذا المفهوم الخاطئ ، فيتكلمون بما نسمعه من كلام لا يقول به باحث عنده حدُّ أدنى من إدراك قواعد اللغة ، ومن المنطق السليم ..

.. وقمة الجهل تتجلى أيضاً في عدم التفريق بين الجذر : (ب ، ك ، ك) حيث المشتق الوحيد له في كتاب الله تعالى هو كلمة ﴿بِكَة﴾ ، وبين الجذر (م ، ك ، ك) حيث المشتق الوحيد له في كتاب الله تعالى هو كلمة ﴿مَكَّة﴾ ، هما جذران مختلفا الدلالة .. وبالتالي فالكلمتان [﴿بِكَة﴾ ، ﴿مَكَّة﴾] ، تعودان لجذرين مختلفين ، والقول بأنَّ حرف الميم في كلمة : ﴿مَكَّة﴾ قلب حرف باء ، فكانت كلمة : ﴿بِكَة﴾ ، هو - للأسف - جهل بقواعد لسان كتاب الله تعالى ..

وقمة الجهل نراها أيضاً عند من يسترسل في الوهم رابطاً بين ﴿بِكَة﴾ وبين البكاء ، وهو يجهل أنّ البكاء من الجذر (ب ، ك ، ي) ، ولا علاقة له بالجذر (ب ، ك ، ك) الذي منه تفرّعت كلمة ﴿بِكَة﴾ .. وهذا يعكس مدى جهلهم بقواعد لسان كتاب الله تعالى ، ومدى درجة ضلالهم ، كوفهم يبحثون عن مقدّمات لنتائج مسبقة الصنع لا أساس لها إلا في أوهامهم ..

.. ويمتهدى الجهل بالحدّ الأدنى من قواعد لسان كتاب الله تعالى ، وبالحدّ الأدنى بالمنطق السليم في تدبّر نصوص كتاب الله تعالى ، يستشهدون بقوله تعالى التالي على أنّ بيت الله تعالى الحرام ، بجوار قرية لوط التي أهلكت :

﴿ وَإِنْ لُوْطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَيْبِ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّا لَنَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالْبَلَاءِ أَفْلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات : 133 - 138]

.. يحسبون هذا النصَّ الكريم خطاباً - حصرياً - للموجودين عند بيت الله تعالى من أفراد الجيل الأوَّل ، ويحسبون المرور المعني - هنا - حسيّاً ، وذلك على آثار الهلاك عند المكان الذي كانوا فيه ، متبَّعين - في ذلك - ما ذهب إليه الموروث في تفسير هذه الآيات الكريمة .. وبناء على جهلهم هذا ، وكون المتعارف عليه أنّ مكان قرية لوط كان عند البحر الميت ، ذهبوا إلى أنّ بيت الله تعالى في تلك المنطقة ، أي في فلسطين ..

.. كلمة : ﴿ وَإِنَّا لَنَمُرُّونَ ﴾ هي خطابٌ لكلِّ مخاطَبٍ بكتاب الله تعالى ، في كلِّ زمانٍ ومكان ، فلا يُوجد في هذا النصِّ الكريم ما يُخصِّصُ المعنيين بهذه الكلمة : ﴿ وَإِنَّا لَنَمُرُّونَ ﴾ .. لا تُوجد - ولو إشارة - لأيِّ تخصيص ، فالأولى في إدراك دلالات هذا النصِّ الكريم ، أن تُدرَك كخطابٍ عامٍّ ، لكلِّ سامعٍ له ..

.. والعبارة ﴿ لَنَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ ﴾ ، تبين لنا مروراً نفسيّاً كتصوير لنوازع النفس البشريّة (التي تنتمي إلى عالم الخلق غير المحسوس) ، حاله ﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ و﴿ بِالْبَلَاءِ ﴾ ، حيث الوقت الغالب للقاء بين الرجل والمرأة ، وحيث إمكانية المرور من فعل هذه الفاحشة واردة .. فعند هذا الحدّ من إمكانية الانزلاق بفعل فاحشة قوم لوط ، يُحذّرنا الله تعالى ، بأنّ غضبَ الله تعالى الذي أنزله على قوم لوط ، ومصيرهم في الآخرة ، لا يختلف عنه مع من يفعل فعلتهم التي فعلوها ..

.. فمن خلال هاتين الآيتين ، يقول الله تعالى للبشريّة جمعاء : إياكم من الانزلاق في فعل فاحشة قوم لوط ، فمصيرهم - في الدنيا والآخرة - يبيّنهُ لكم في القرآن الكريم ،

ويدركه كل عاقل ، وناموسي لا يتغير ولا يتبدل ، فمن يفعل هذه الفاحشة مصيره لا يختلف عن مصير قوم لوط ..

.. وتأتي العبارة القرآنية الأخيرة : ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ، خطاباً لكل سامع لهذا النصّ الكريم ، بأنه عليه أن يعقل ما حلّ بقوم لوط عليه السلام ، وأنّ فعل ما قاموا به يقتضي غضب الله تعالى ، في الدنيا والآخرة ..

.. مشكلة هؤلاء ، تكمن في تصوّر دلالات النصّ الكريم خطاباً حصرياً لبعض أفراد الجيل الأوّل ، ممن يسكنون بجوار بيت الله تعالى ، وتكمن في تصوّر دلالات العبارة : ﴿لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ﴾ بأنها تعني مرور هؤلاء الأفراد من الجيل الأوّل على آثار قوم لوط عليه السلام .. وهنا نقول : حتّى لو فرضنا جدلاً ، أنّ الأمر خاصّ ببعض أفراد الجيل الأوّل ، وأنّ المرور هو مرور حسيّ على بقاياهم المادّية كآثار .. لو فرضنا ذلك جدلاً .. فهل كلُّ أفراد الجيل الأوّل كانوا يمرّون ﴿مُصْبِحِينَ﴾ ﴿وَبِاللَّيْلِ﴾ مروراً حسيّاً بأجسامهم ، وبشكل مستمرّ ، على آثار قوم لوط عليه السلام ؟!!! ..

.. مشكلة هؤلاء أنّهم يضعون نتيجةً مسبقة الصنع ، لا وجود لها إلاّ فيما تُمليه عليهم أهواؤهم ، ويبدؤون بالبحث لها عن مقدّمات لا علاقة لها - لا من قريب ولا من بعيد - بتلك النتيجة ... وهذا الجهل نراه - أيضاً - في زعمهم بأنّ النصّ التالي - وما مثله - هو خطابٌ للنبيّ عليهم السلام حصراً ، وأنّ الرؤية هنا هي رؤية بصرية حسيّة لما يُحيط ببيت الله تعالى ، حصراً :

﴿الْمَرَّتْ أَنْ أَلَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر : 27]

.. الخطاب ﴿الْمَرَّتْ﴾ هو لكلّ سامع له ، في كلِّ زمانٍ ومكان ، من النبيّ محمّد عليه السلام ، إلى قيام الساعة .. والرؤية ﴿تَرَّتْ﴾ دلالاتها واسعة تشمل - فيما تشمل -

الرؤيا العقلية التدبرية لما وراء عالم الظاهر ، وهذا معلومٌ في كتاب الله تعالى .. وفي النصوص التالية لأكثر دليلٍ لمن يملك ذرة تدبر سليم لنصوص كتاب الله تعالى ، على جهل هؤلاء ، وعلى كونهم لا يعلمون الحد الأدنى من المنهج السليم لإدراك نصوص كتاب الله تعالى ..

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ أَهْبِثْ لَنَا مَلِكًا نَقْتُلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ ﴾ [البقرة : 246]

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهٖ أَنْ ءَاتَهُ اللَّهُ الْمَلَكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ... ﴾ [البقرة : 258]

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيْطَانَ عَلَى الْكٰفِرِينَ تَوۡزُهُمۡ آزًا ﴾ [مريم : 83]

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمٰوٰتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ﴾ [الحج : 18]

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [النور : 41]

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفَلَكَ تُجْرَىٰ فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ ﴾ [لقمان : 31]

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [المجادلة : 7]

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ [الفيل : 1]

.. ومن الشبهات التي يطرحونها ، أن المعنى بالإسراء ليس النبي محمدًا عليه السلام ، وإنما موسى عليه السلام :

﴿ سُبْحٰنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ

الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِّنْ ءَايٰتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَايٰتِنَا

مُوسَى الْكَتَّابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿ [الإسراء : 2 - 1]

.. يقومون بربط مسألة الإسراء في الآية الأولى ، بموسى عليه السلام الذي يرد ذكره في الآية الثانية ، فراضين أهواءهم على صياغة النصّ الكريم ..

.. السياق السابق لكلمة : ﴿بِعَبْدِهِ﴾ ، لا يحمل أيّ إشارة لشخصٍ محدّدٍ بعينه :

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ .. وحرف الواو في الكلمة الأولى من الآية الكريمة الثانية : ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكَتَّابَ﴾ ، هو حرف استئناف لكلام جديد ، لا رابط بينه وبين المعنى بكلمة : ﴿بِعَبْدِهِ﴾ في الآية الأولى .. وهناك احتمال لأن يكون حرف الواو حرفَ عطف ، لكن ، على الجملة : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى﴾ ، وحتى في هذا الاحتمال ، لا رابط - على الإطلاق - بين موسى عليه السلام ، وبين المعنى بكلمة : ﴿بِعَبْدِهِ﴾ .. فربط الآية الثانية بالمعنى بكلمة : ﴿بِعَبْدِهِ﴾ في الآية الأولى ، لا أساس له على الإطلاق ، لا من قريب ولا من بعيد ..

.. ولو عدنا إلى كتاب الله تعالى ، لرأينا أنّ كلمة ﴿عَبْدِهِ﴾ كإضافة تُضاف فيها كلمة (عبد) إلى الله تعالى ، نراها تعني شخصاً محدّداً ، ورد ذكره في السياق السابق :

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ط قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهَدِ صَبِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ

ءَاتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿ [مریم : 29 - 30]

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿ [القمر : 9]

.. أو .. تعني شخصاً محدّداً ، جاء بدلاً لها :

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿ [مریم : 2]

﴿ أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْخُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَٰ ذَا الْأَيْدِ ۗ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : 17]

﴿ وَادْخُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي ﴾ [ص : 41]

.. لكن .. عندما لا يكون في سياقها السابق ما يشير لشخصٍ محدّدٍ ، وعندما لا يكون لها بدل .. عند ذلك .. فإنها لا تعني إلاّ النبيّ محمّداً عليه السلام :

﴿ وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّمَّنْ لَمِثْلِهِ وَادْعُوا

شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : 23]

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ

الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ آيَاتِنَا ۗ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء : 1]

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾ [الكهف : 1]

﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْأَجْمَعَانِ ﴾ [الأنفال : 41]

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : 1]

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۗ ... ﴾ [الزمر : 36]

﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ [النجم : 10]

﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ [الحديد : 9]

﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ [الجن : 19]

.. فعلى أيّ أساس يُعيدون الإسراء - المعنيّ في الآية الأولى من سورة الإسراء - إلى موسى عليه السلام !!!? .. لا يُمكن إعادته - حسب ما قدّمنا من أدلّة - إلاّ إلى النبيّ محمّداً عليه السلام ..

.. ومن جهل هؤلاء ، أنهم لا يعلمون أن المسلمين عندما كانوا يدخلون بلاداً ، وبعد دخول أهلها في الإسلام ، يحولون - أحياناً - معابدها القديمة - أو بعض الأبنية فيها - إلى مساجد ، على ما هي عليه من بناء ، فقط يضعون إشارة لاتجاه القبلة ، وأحياناً يبنون على أساساتها ، وأحياناً يغيرون بعض الجدران فيها .. هذا معلوم تاريخياً .. لذلك .. ينطلق الجهلاء من هذا الأمر ، كمحاولة للتشكيك في القبلة ، كون بعض المعابد التي حوّلت إلى مساجد ، ليست متّجهة تماماً إلى بيت الله تعالى ، مُعرضين عن كون الكثير من المساجد القديمة تتّجه تماماً إلى بيت الله تعالى ..

.. ويتعلّى جهل هؤلاء بالاستشهاد ببعض الروايات التاريخية الموضوعة ، مُعرضين عن روايات أخرى أعلى منها ثقة وبعشرات أمثالها ، ويحتجّون بأمور لا علاقة لها بمنهج البحث السليم ، مثل عدم وجود آثار لمدينة قديمة تحت مكة ، وينطلقون من أوهامهم بأن مكة كانت عاصمة تجارية وزراعية تحتوي على الحدائق والشجار .. وكل ذلك للتشكيك ببيت الله تعالى ، وبقبله المسلمين التي يتّجهون إليها في صلاتهم .. وقد فندنا كل هذه الأوهام ..

.. يبيّن لنا الله تعالى - في كتابه الكريم - أنه لن يُضيع إيمان مؤمن ، في أيّ زمانٍ ومكان .. وعدم علم مكان بيته الذي يأمرنا بالتوجّه إليه - في أيّ عصر - هو إضاعة لإيمان المأمورين بالتوجّه إليه ، فمعاذ الله تعالى أن يُضيع إيمان مؤمن ..

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة :